سلسلة الصحابة الأخيار

مالك الأشتر





نَحنُ في سوقِ الكوفَةِ في أيّام خِلافَةِ أميرِ المُؤمنينَ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ عليه السلام ،حَيثُ النّاسُ يَعيشونَ في أمنٍ وأمانٍ. فهُم يروحونَ وَيجيئونَ بينَ بائع يعرِضُ بِضاعَتَهُ، وشارٍ يُفاوِضُ أو يشتري، أو مارَّةٍ يعبرونَ الشّارعَ كُلٌّ في شَأنِهِ وإلى سَبيلِهِ.

في زاويَـةٍ منْ زوايـا الطّريقِ وقفَ أحَدُ العاطِـليـنَ عنِ العَمَـلِ يُراقِبُ المارَّةَ في ذهابِهِم وإيابِهِمْ، ولا شيءَ يَفعَلُهُ سِوى إطـلاقِ تعليقاتٍ سَخيفَةٍ، أوِ القِيام بتَصَرُّفاتٍ صِبيانيَّةٍ طائِشَةٍ.

بَحَثَ الرَّجُلُ طويلاً عن ضَالَّتِهِ في صَيدٍ غريبٍ منَ البَشَرِ يُرضـي عُقَدَهُ بالتَّهَكُّم عَلَيهِ، إلى أن بدا لَهُ رجُلٌ قادِمٌ منَ بعيدِ.

تأمَّلَ الرَّجُلَ القادِمَ الّذي استَرعى انتِباهَهُ، فَوَجَدَهُ طَويـلَ القامَـةِ، عَريضَ الصَّدرِ، وقدِ انقَلَبَ جَفْنُ إحدى عَينَيهِ إلى الأسفَلِ.

ولَيسَ هذا وَحْدَهُ ما استَرعى انتِباهَ الرَّجُلِ، بل ثيابُ عابِـرِ السَّبيلِ الرَّثَّةُ ! كانَ الرَّجُلُ يرتَدي قميصاً من قُماشِ الخامِ، وعمامَـةً منَ النَّوع ذاتِهِ.

في الوَاقِعِ لَم يَكُنْ أمراً مألوفاً أن يُرى في ذلكَ الزَّمانِ رجُلٌ لا يملِكُ ثَمَنَ ملابِسَ فاخِـرَةٍ، أو على الأقلِّ، ملابِسَ مَصنوعَـةٍ من قُماشٍ مُتَوَسِّطِ النَّوع.



لم يَلبَثِ العاطِلُ عنِ العَمَلِ ذاكَ، أن قَذَفَ الرَّجُلَ المارَّ بِبُندُقَةٍ عَثَرَ عليها في الزُّحام، ثُمَّ أطلقَ ضِحكَةً تحمِلُ كُلَّ معاني الهُزءِ والاحتِقارِ، أمّا صاحِبُ الملابِسِ الغَريبَةِ فمضى في سَبيلِهِ دونَ أن يقولَ شيئاً!

وكانَ أحَدُ المُؤمنينَ يرى مايَحدُثُ، فأقبَلَ نحوَ العابِثِ وقالَ لَهُ:" ويلَكَ! أتدري مَنْ رَمَيتَ؟".

قالَ الرَّجُلُ :" لا!". فقالَ:" هذا مالِكٌ! صاحِبُ أميرِ المُؤمنينَ عليه السلام!".

كانَتْ صَدمَةً غيرَ مُتَوَقَّعَةٍ للرَّجُلِ الّذي كانَ للإمام عليه السلام وأصحابِهِ في قَلبِهِ مهابَةٌ عظيمَةٌ. فتأسَّفَ على فِعلَتِهِ تِلكَ، وانطَلَقَ يعدو خَلْفَ مالكٍ كي يَعتَذِرَ منهُ، وإذ بِهِ يدخُلُ إلى المَسجِدِ، ثُمَّ يَقومُ للصَّلاةِ!

جَمُدَ الرَّجُلُ في مَكانِهِ يَنتَظِرُ مالِكاً حتّى أنهى صَلاتَهُ، وما إنِ انفَتَلَ مِنها حتّى انحنى الرَّجُلُ مُكِبّاً على قَدَمَيهِ يُقَبِّلُهُما مُعتَذِراً عمّا بَدَرَ منهُ.





تَعجَّبَ مـالكٌ وأبعَدَ قَدَمَيـهِ عنهُ، ثُمَّ سـأَلَهُ:" ما هذا الأمرُ؟".
فقالَ:" أعتَذِرُ إليكَ ممّا صَنَعتُ!".
فقالَ مالكٌ:" لابأسَ عَلَيكَ! فوَاللّهِ ما دَخَلتُ المَسجِدَ إلاّ لأستَغفِرَنَّ لكَ!.".

كانَ ذلكَ الرَّجُلُ مالِكاً الأشتَرَ، صاحِبَ الإمـام عليٍّ عليه السلام!
فَمَنْ هُوَ هذا الرَّجُلُ الّذي شَهِدَ بهِ النَّبيُّ الأكرَمُ صلى الله عليه وآله وسلم حينَ قالَ لأبي ذرٍّ الغَفاريِّ:" يا أبا ذرٍّ! تعيشُ وحدَكَ، وتَمـوتُ وَحدَكَ، وَتُبْعَثُ وَحدَكَ، وَتَدخُلُ الجَنَّةَ وَحـدَكَ، يَسعَدُ بكَ أقوامٌ من أهلِ العِراقِ يَتَوَلَّونَ غَسْلَكَ وتَجهيزَكَ ودَفنَكَ!.".

نَعَم. لَقَدْ شاءَ اللّهُ تعالى أن تَخرُجَ جَماعَةٌ منَ المُؤمنينَ إلى الحجِّ، وأبو ذرٍّ الغفاريُّ المنفيُّ إلى الرَّبذَةِ يَحتَضِرُ، ومِن بَينِ أولئكَ القَـوم: مالكٌ الأشتـرُ، وحينَ وصلـوا الربذَةَ وَجَدوا امرأةً على قارِعَةِ الطَّريقِ تَقولُ:"
يا عِبادَ اللّهِ المُسلِمينَ، هذا أبو ذرٍّ صاحِبُ رَسـولِ اللّهِ، قد هَلَكَ غريباً، لَيسَ لَهُ أَحَدٌ يُعينُني عَلَيهِ.". كانَتِ المَرأةُ تلكَ ابنَةَ أبي ذرٍّ!



ما إن سَمِعَ الرِّجالُ قَولَها حتّى نَظَرَ بَعضُهُم إلى بَعض، وَحَمَدوا اللّهَ على أن ساقَهُم إلى هذا المَكانِ، فكانـوا هُمُ الأقّـوامَ الّذينَ ذَكَرَهُمُ النَّبيُّ ﷺ بقَولِهِ، فتعاونـوا جَميعاً على تَغسيلِهِ وتَكفينِهِ وتَجهيزِهِ، ثُمَّ قَدَّموا مالِكاً الأشْتَرَ لِيُصَلّيَ عَلَيه، وبَعـدَ أن دَفنـوهُ قامَ مالِكٌ على قَبرِهِ وقالَ: "اللّهُمَّ هذا أبو ذرٍّ صاحِبُ رسولِ اللّهِ، عَبدَكَ في العـابِدينَ، وجاهَـدَ فيكَ المُشـرِكينَ، لَم يُغَيِّـرْ ولَم يُبَدِّلْ، لكِنَّهُ رأى مُنكَـراً فَغَيَّرَهُ بِلِسـانِهِ وَقَلبِـهِ، حَتّى جُفِيَ ونُفِيَ وحُرِمَ واحتُقِرَ، ثُمَّ ماتَ وحيدا غَريباً،ا للّهُمَّ فاقصِـم مَنْ حَرَمَهُ وَنَفاهُ مِنْ مهاجرَةِ حَرَمِ اللّهِ، وحَرَمِ رسولِ اللّهِ."فَرَفَعَ الحاضِرونَ أيديهم وقالوا:" آمين.".

إذاً إنَّهُ مالِكٌ الأشترُ، والأشتَرُ لَقَبُهُ وَلَيسَ اسمَهُ. فَقَد أُصيبَ في عَينَهِ أثناءَ جِهادِهِ في مَعرَكَةِ اليَرموكِ الّتي أبلى فيها بلاءً عظيماً. أمّا اسمُهُ فَهُوَ:مالِكٌ بنُ الحارثِ بنِ عَبدِ يَغوثَ النَّخعيُّ الكوفيُّ. ورَغمَ أنَّ أصلَهُ منَ اليَمَنِ إلاّ أنَّهُ انتَقَـلَ إلى الكوفَـةِ بَعدَ امتِدادِ الإسلام وَ إليها نُسِبَ فيما بَعدُ. كما كانَتْ كُنيَتُـهُ: أبـا ابراهيـمَ. ما كانَتِ الصِّفـاتُ الّتي اجتَمَعَتْ في شَخص مالِكٍ الأشْتَـرِ إلاّ لِتُقَدِّمَهُ على النّاسِ في عَصْرِهِ، وتَجعَلَهُ مُعَلِّماً وقائِداً منَ الطِّرازِ الأوَّلِ.

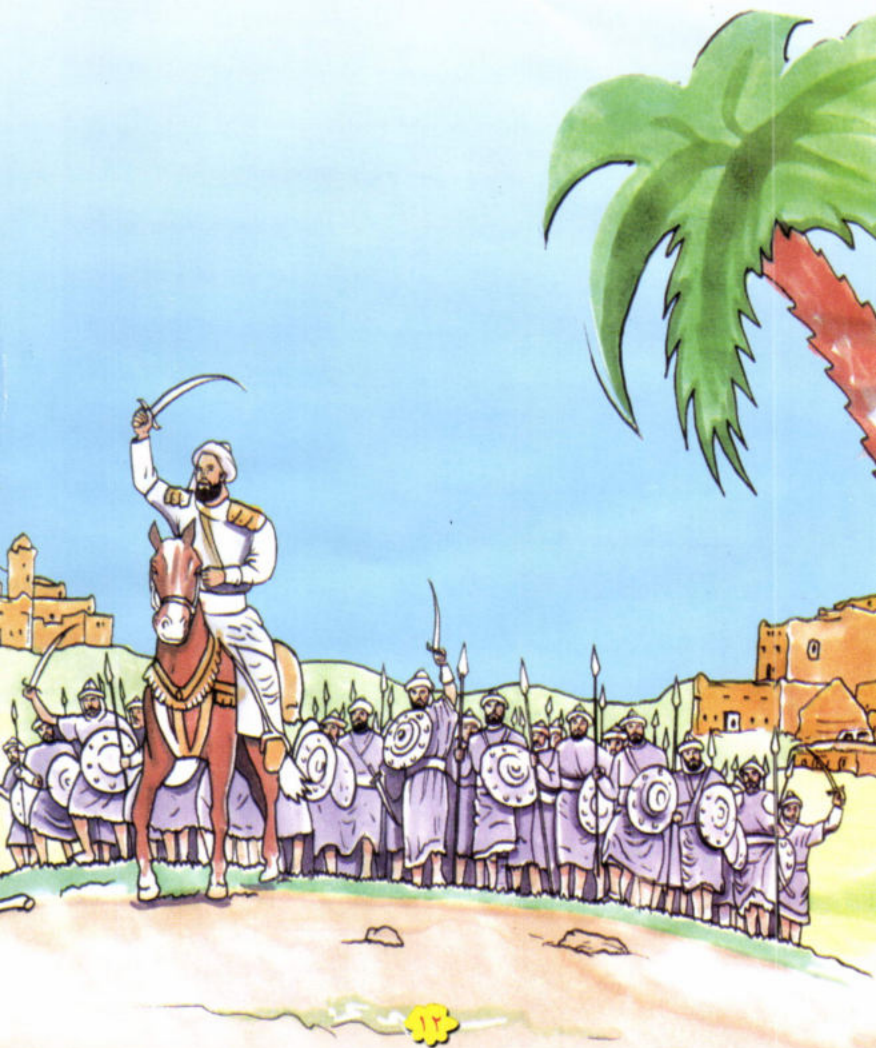


ولَيسَ قليلاً أن يَحوزَ على ثِقَةِ أميرِ المُؤمنينَ عليٍّ بنِ أبي طالب عليه السلام طوالَ حَياتِـهِ الشَّريفَةِ وتَقْتَـرِنَ أحداثُ حَياتِـهِ بصُحبَتِـهِ لَهُ، ونُصرَتِهِ لآلِ بَيتِ النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم، مَعَ أنَّهُ شَهِدَ بأن لا إلهَ إلاَّ اللَّهُ، وأنَّ مُحمَّداً عَبدُهُ ورسولُهُ في أيّام النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم.

ولكن، حَدَثَ بَعدَ وفـاةِ النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم انحِـرافٌ خَطيـرٌ عن تعاليمِـهِ ووصاياهُ، وأُلقيَتْ على كَتِفَـي أميـرِ المُؤمنينَ عليه السلام أثقـالٌ عظيمَـةٌ بخُروجِ أعداءِ النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم القُدَماءِ من جُحورِهِم، وتَسخيرِهِـم كُلَّ ما لَدَيهِم منْ إمكاناتٍ لِصَرْفِ خِلافَةِ المُسلِمينَ عنْ وَصيِّ النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم.

وكانَ مالِكٌ مِمَّنْ مَنَّ اللَّهُ تعالى عَلَيهِ بالهِدايَـةِ، ومَلأَ قَلبَـهُ نـوراً، فتَبيَّنَ الحَقيقَةَ، وتَبِعَ الضِّياءَ، ووَجَدَ نَفسَتهُ من المحظـوظيـنَ في طاعَةِ أميـرِ المُؤمنينَ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ عليه السلام، يَتَعَلَّمُ منهُ فَيَرفِـدُ نَفسَهُ بأخلاقِ النُّبُوَّةِ السّامِيَةِ، ويَتبَعُ خُطاهُ فيستَهدي بِنورِ اللَّهِ جلَّ وعـلا.

لَم يَقتَصِرْ تَأثيرُ صُحْبَـةِ مالِكٍ لأمـيرِ المُؤمنينَ عليه السلام على مزايـاهُ الأخلاقِيَّةِ فَحَسْبُ، بَل تعدَاها إلى مزايا قِتاليَّةٍ، وفُروسيَّةٍ لامثيـلَ لَها بينَ المُحـاربينَ، أمَدَّهـا إيمانُهُ العَميقُ بشَجاعَةٍ نادِرَةٍ، وقُوَّةٍ جَعَلَتْهُ مَثلاً أعلى في عُيونِ المُؤمنينَ الأتقِياءِ،فاكْتَسَبَ في قُلوبِهِم مكانةً عظيمَةً، واحتراماً لا نَظيرَ لَهُ.



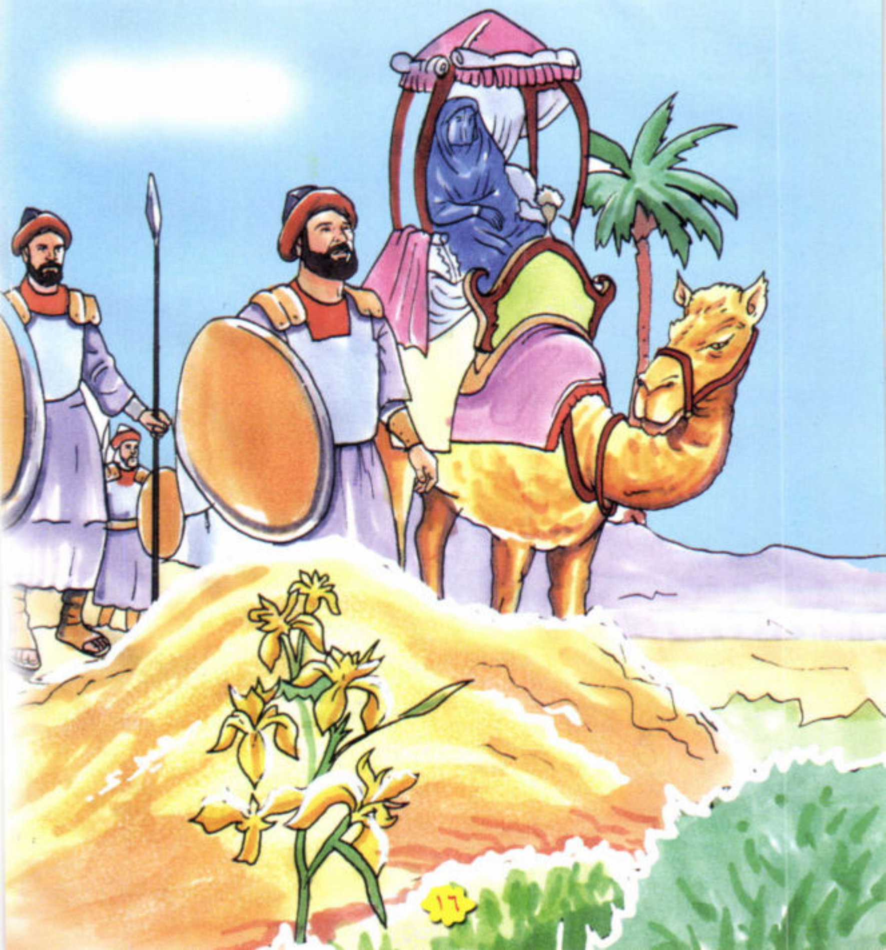
أَخلَصَ مالِكٌ للإمـامِ عليٍّ عليه السلام إخلاصاً عظيمـاً، وامتَـزَجَ عِشقُهُ لأنوارِ النُّبوَّةِ بِروحِهِ ودَمِهِ،
فَتَجلّى ذلِكَ العِشْقُ أكثَرَ ما تَجلّى أيّامَ خِلافَةِ عُثمـانَ بنِ عفّـانٍ، وَرَفضِهِ لأفعالِ والي الخَليفَةِ في الكوفَةِ سَعيدٍ بنِ العاصِ، ما أدّى إلى نَفيِهِ إلى حِمصَ، ولكنَّهُ عادَ إلى الكوفَةِ مُجَـدَّداً، ومِنْ هُناكَ كانَ يَسمَعُ عَنْ أعمالِ عُثمانَ وَتَعَدِّياتِهِ على أحكام الدّينِ،وَتعاليم القُرآنِ، فقادَ الكوفيّيتنَ الّذينَ اختاروا الثَّورَةَ على حُكمِـهِ، بل إنّهُ توجَّهَ بِهِم إلى المدينَةِ المُنَـوَّرَةِ، واستَطاعَ بِهِم أن يَقضيَ على حُكـومَـةِ عُثمـانَ.
وَبَعدَ أن تولّى الإمـامُ عليٌّ عليه السلام الخِلافَةَ، وَجَدَ في مالِكٍ خَيرَ مَنْ يُعتَمَدُ عَلَيهِ، بَعدَ أن لَمَسَ استِعدادَهُ لِفِداءِ الإســلام بِروحِهِ.
أمّا مالِكٌ فكانَ مُنتَبِهاً إلى الظُّروفِ الصَّعبَـةِ الّتي تُواجِـهُ الإســلامَ في تِلكَ المَرحَلَـةِ، تِلكَ الظُّروفُ الّتي كـانَ في مُقَدِّمَتِهـا مَوقِفُ عائِشَةَ زَوجِ النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم الّتي رَفَضَتْ تَنفيذَ وصِيَّةَ زَوجِها النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم في وِلايَةِ عَليٍّ عليه السلام، ولَم يَكُنْ آخِرَها مَوقِفُ مُعاوِيَةَ بنِ أبي سُفيانَ الّذي عَشِقَ الدُّنيا والمُلكَ إلى دَرَجَةِ أنَّهُ كادَ يعودُ بالمُسلِمينَ إلى الجاهِلِيَّةِ وَعِبادَةِ الأوثانِ.



وبَعدَ أن عَتزَلَهُ الإمـامُ عليٌّ عليه السلام عن وِلايَـةِ الشّـام، بَدَأَ يُجَيِّشُ الجُيوشَ لِقتالِ الإمام عليه السلام، ويستَعِدُّ لإثارَةِ الفِتَنِ بَينَ المُسلِمينَ. كانَ يَعلَمُ مالكٌ أنَّ هذِهِ الظُّروفَ الصَّعبَةَ تتَطَلَّبُ منهُ جِهاداً غَيرَ عاديٍّ، مَعَ سِياسَةٍ حَكيمَةٍ، فَلَم تَنقُصْهُ الجُهوزِيَّةُ في هذا ولا في تِلكَ.

في تِلكَ الفَترَةِ كانَ أبو موسى الأشعريُّ والياً على الكوفَةِ، وقـد تمنّى مالكٌ على الإمام عليٍّ عليه السلام أن يُبقيهِ في منصِبِهِ. لكنَّهُ عندَما رأى في أبي موسى موقِفاً مُتَخاذِلاً عن نُصرَةِ أميرِ المُؤمنينَ عليه السلام في حَربِ الجَمَلِ، تخلّى عَن رَغبَتِهِ تِلكَ، ونَفَّذَ حُكمَ الإمامِ عليٍّ عليه السلام في إخراجِ أبي موسى منَ الكوفَةِ.

وهكَذا، لم يَكُنْ مالِكٌ ليُعصِيَ الإمامَ عليّاً عليه السلام في أيِّ أمرٍ مَهما كانَ مُكلِفاً. بَلْ إنَّهُ كانَ يَجِدُ نَفسَهُ دائِماً في أوَّلِ صَفٍّ من صُفوفِ أنصارِ الإمامِ عليه السلام، حتّى تَرَكَ لَهُ الإمامُ عليه السلام أمرَ قِيادَةِ ألوِيَتِهِ في أكثَرِ معارِكِهِ.



إذاً، ما كادَ الإمامُ عليٌّ عليه السلام يتولّى خِلافَـةَ المُسلِمينَ، حتّى تلَبَّدَتِ السَّماءُ بِغُيوم الحَربِ، وكانَتْ أولاهـا حَربُ الجَمَلِ الّتي جَيَّشَتْ لَها عائِشَةُ الجُيوشَ، فَهِـيَ لا تَستَطيعُ أن تتَخَيَّلَ الإمـامَ عليّاً عليه السلام خليفَةً لِلمُسلِمينَ، رغمَ أنَّهـا تعلَـمُ تَمامـاً أنَّ ذلكَ ما أوصى بِهِ النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم على مَسمَعٍ ومرأىً منَ المُسلِمينَ جَميعاً.

في يَومِ الغَديرِ وفي غَيرِ يَومِ الغَديرِ. لكنَّ كُرهَهـا لأميرِ المُؤمنينَ عليه السلام غَلَبَ عَليها، وصَرَفَها عنِ التَّفكيرِ بِما أرادَهُ النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم، الّذي هُوَ تماماً ما أرادَهُ اللّهُ سُبحانَـهُ، فالنَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم ليسَ إلاّ وحياً يوحى.

وقد حاوَلَ الإمامُ عليٌّ عليه السلام أن يتَجَنَّبَ تِلكَ الحَربَ بِكُلِّ الوَسائِلِ المُمكِنَةِ، ولكنَّ عائِشَـةَ عَزَمَتْ وانطَلَقَتْ في هَودَجِهـا على ظَهرِ جَمَلٍ وَخَلفَها الجُيوشُ، لِتلتَقي بِجَيشِ عليٍّ عليه السلام في البَصْرَةِ.

وتَنشُبُ الحَربُ، ومالكٌ الأشترُ على مَيمَنَةِ جَيشِ عليٍّ عليه السلام، يَذودُ بِسَيفِهِ، ويَرى بِعَينَيهِ الفُرسانَ يَتهاوَونَ، إلى أن تنتهي الحَربُ بانتِصارِ جَيشِ الإمامِ عليٍّ عليه السلام، فَيُرسِلُ الإمامُ عليه السلام بأخي عائِشَةَ مُحمَّداً بنَ أبي بَكرٍ كي يَحمِلَها إلى بَيتِها مُكرَّمَةً!

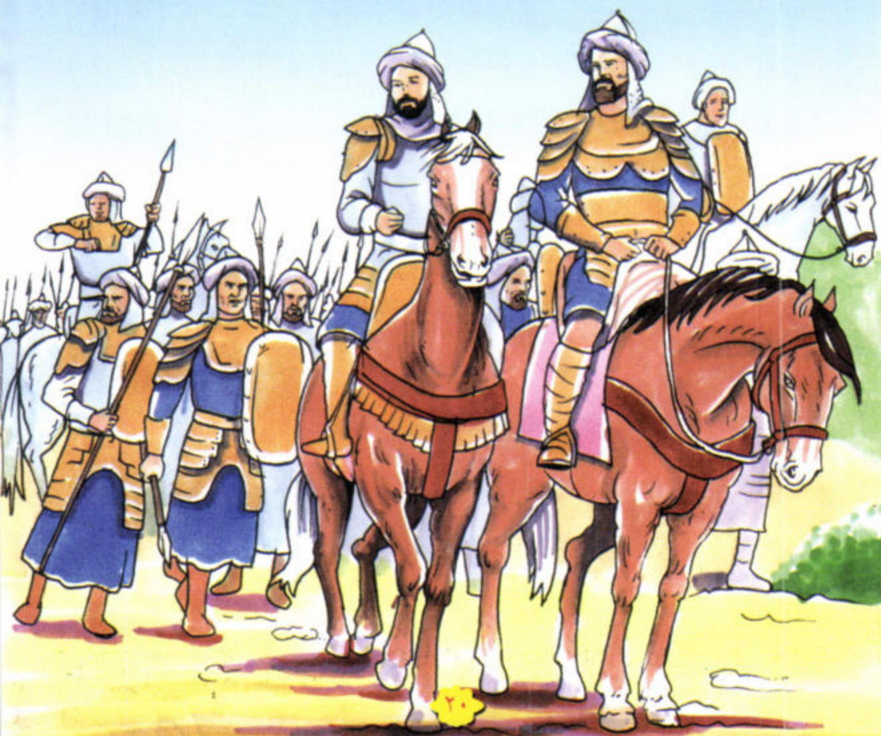


ويتَحدَّثُ المُسلِمونَ بَعدَ ذلكَ عَن شَجاعَةِ مـالكٍ الأشتَرِ الفَذَّةِ، وسَيفِهِ البتّارِ،وهكذا تَنتهي تِلكَ الحَربُ بِنَدَمِ عائِشَةَ على مابَدَرَ منها، وإراقَتِها كُلَّ تِلكَ الدِّماءِ بلا غايَةٍ.

فها هُوَ عمّارٌ بنُ ياسِرٍ(رض) يُخاطِبُها بَعدَ أن وَضَعَتِ الحَربُ أوزارَها، ويقولُ لَها:" سُبحانَ اللّهِ يا أُمَّ المُؤمنينَ، ما أبعَدَ هـذا الأمرَ منَ الأمرِ الّذي عَهَدَ رَسولُ اللّهِ ﷺ إليكِ فيهِ، أمَرَكِ أن تَقِرّي في بَيتِكِ.". فقالَتْ:" مَنْ هذا؟ أبو اليَقظانِ؟.". قالَ:" نعم.". قالَتْ :" واللّهِ إنّكَ ما عَلِمْتُ تقولُ الحَقَّ.". فقالَ:" الحَمدُ لِلّـهِ الّذي قَضى لي على لِسانِكِ!.".

إذاً هَدَأتْ حَربُ عائِشَةَ، ولكن، مَنْ يُمكِنُ لَهُ أن يُخَفِّفَ من حِقدِ بني أُمَيَّةَ، ويُطفِئَ رَغبَةَ زَعيمِهِم مُعاوِيَةَ في الانتِقـامِ من عليٍّ عليه السلام الّذي لطالَمـا هَوى تَحتَ حدِّ سَيفِـهِ أعتى عُتـــاةِ المُشركينَ، وَمِنهُـمُ الكَثيرونَ من أقربـاءِ مُعاوِيَةَ، الّذي اشْتُهِرَ أبوهُ واشْتُهِرَتْ أُمُّهُ مِن قَبلُ بالغَدرِ والنِّفاقِ؟

إنّها حُجَّةُ حَربِ عائِشَةَ الّتي خَرَجَتْ لِطَلَبِ الثّأرِ من قاتِلي عُثمانَ بنِ عفّانَ!



هذا مُعاويَةُ الآنَ يُطالِبُ بِدَمِ عُثمانَ، وَيَرفُضُ أنْ يُعتزَلَ عن ولايَةِ الشّامِ الّتي أمعنَ فيها فُحشاً وظُلماً وسَرِقَةً لأموالِ المُسلِمينَ وأرزاقِهِم، أمّا مالِكٌ فَقَد ولاّهُ الإمامُ عليٌّ عليه السلام على مَنطِقَةِ الجَزيرَةِ بَينَ دجلَةَ والفُراتِ، وَهِيَ مَنطِقَةٌ قَريبَةٌ منَ الشّامِ حَيثُ حَشَدَ مُعاوِيَةُ قِواهُ.

فَرَأى الإمامُ عليٌّ عليه السلام أن يَستَدعيَ مالِكاً ليكونَ مَعَهُ في حَربِ صفّينَ، وكانَ مالِكٌ كما تَوَقَّعَهُ الإمامُ عليه السلام، فارساً شُجاعاً، قويّاً، حكيماً، ليسَ لِحلِّ عُقَدِ الحُروبِ المُفاجِئَةِ إلاّ سَيفُهُ!

كانَ موقِعُ مالكٍ في المَيمَنَةِ، ومَوقِعُ عَبدِ اللّهِ بنِ عباسٍ في المَيسَرَةِ، وفي وَسَطِ المَعرَكَةِ بَرَزَ أميرُ المُؤمنينَ بِسَيفِهِ ذي الفِقارِ يَتحدّى المُنافِقينَ، ويُفري رِقابَهُم.

وَتَقَدَّمَ مالكٌ، وذاكَ هوَ الأمرُ المُتَوَقَّعُ، لما لَهُ من خِبرَةٍ في أمورِ القِتالِ، وذكاءٍ في التّعامُلِ معَ المُستَجِدّاتِ إضافَةً إلى شَجاعَتِهِ الفائِقَةِ. ولكنَّهُ أظهَرَ في أيّامِ الحَربِ الأخيرَةِ ما يُشبِهُ المُعجِزاتِ، أليسَ واحِداً من جُنودِ الإمامِ عليٍّ عليه السلام والمُقاتِلينَ تَحتَ لِوائِهِ.



ها هُوَ يَخطُبُ في الجُنودِ، وكانَ ممّا قالَهُ لَهُم:" الحَمـدُ للّهِ الّذي جَعَلَ فينا ابنَ عمِّ نَبيِّهِ، أقدَمِهم هِجرَةً وأوَّلِهم إسلاماً. سَيفٌ من سُيوفِ اللّهِ صَبَّهُ اللّهُ على أعدائِهِ.. ".

وَفي لَيلَتي الخَميسِ والجُمُعَةِ وليلَةِ الهَريرِ، استَطـاعَ مالـكٌ ببسالَةٍ فائِقَةٍ أن يتقَدَّمَ من مَوقِعِهِ نَحوَ الانتِصارِ بسُرعَةٍ وقُوَّةٍ، فقَدْ طَلَبَ لِجَيشِ الإمام عليٍّ عليه السلام مدَداً من قبيلَتِهِ، فجـاؤوهُ كاللُّيـوثِ الغِضـابِ، كَمـا أيَّدَهُ الإمـامُ عليٌّ عليه السلام بمَزيدٍ منَ الرِّجالِ!. لكنَّ قُربَ مالكٍ منَ الانتِصارِ الّذي باتَ وشيكـاً، دَفَعَ أعداءَهُ إلى الحيلَةِ الّتي لَم يَعُدْ إلاّها مُعيناً و مُخَلِّصـاً من هذا المَأزقِ! فقَد حاكَ عمرو بنُ العاصِ قائِدِ جُيوشِ مُعاويَةَ خُيوطَ مُؤامَرَتِهِ، وكانَ في جَيشِ الإمام عليٍّ عليه السلام ومالكٍ جَماعَةٌ منَ الأغبياءِ الّذينَ سَقطـوا في الشِّركِ! لَقَدْ حَمَلَ أهلُ الشّـام المَصـاحِفَ على أسِنَّةِ الرِّمـاحِ، وقالوا:" هذا كِتابُ اللّهِ بينَنا وَبَيْنَكُم!.". فانصاعَ أولئكَ الأغبياءُ إلى قَولِهِم وتَوقَّفوا عنِ القِتالِ، لأنَّهُم رأوا أنّهُ لا يَجوزُ لَهُم أن يُقاتِلوا قَوماً يُطالِبونَ بحُكـمِ القُرآنِ.



ولكنَّ الإمامَ علياً عليه السلام ماكانَ غافِلاً طَرفَةَ عَينٍ عنْ تِلكَ المُؤامَرَةِ، فشَرَحَ لِجَيشِهِ أنَّ القَومَ يَحمِلونَ المَصاحِفِ ولا يَعمَلونَ بِها، ورغم ذلكَ فقد طلبوا منَ الإمامِ عليٍّ عليه السلام أن يُرسِلَ بِطَلَبِ مالكٍ، وأن يأمُرَهُ بإيقافِ الحَربِ!

فَانقَسَمَ جَيشُ الإمامِ عليٍّ عليه السلام،ووَقَعَتْ فيهِ الفِتنَةِ.إنَّ أولئكَ الّذينَ خُدِعوا وتَمَرَّدوا علىَ أوامِرِ إمامِهِم أكثَرُ أتباعِهِ اجتِهاداً في عِبادَةِ اللّهِ سُبحانَهُ، فَكَيفَ يُمكِنُ لِبَقِيَّةِ الجُندِ إذاً أن يُطيعوهُ؟ . .لَم يَعُدْ أمامَ الإمامِ عليه السلام بُدٌّ من أن يأمُرَ الأشتَرَ بالعَودَةِ، وإيقافِ الحَربِ.

أمّا الأشترُ، فَقَد عَرَفَ الخِدعَةَ، وَقالَ للقَومِ:" . . .رَفعوا المَصاحِفَ يدعونَكُم إلى مافيها، وقد واللّهِ تركوا ما أَمَرَ اللّهُ فيها، وسُنَّةَ مَنْ أُنزِلَتْ عَلَيهِ.".

وقد تألَّمَ كثيراً من أن يَجِدَ الخِذلانَ طاغِياً على الكثيرينَ من أفرادِ جَيشِهِ، حينَ وَصَلَ إلى أبوابِ الظَّفَرِ، فأعلَمَهُم بِأنَّ النَّصرَ باتَ قريباً، وَطَلَبَ منهُم أن يُمهِلوهُ وقتاً يسيراً جدّاً، لكنَّ القَومَ وَقَعوا في الفَخِّ الّذي نُصِبَ لَهُم، وقَد عَموا عنْ مُعاوِيَةَ وصَحبِتهِ، وأساليبِهِم في المَكرِ والخِداعِ.



وأخيراً انتَظَرَ مالِكٌ قَرارَ الإمامِ عليٍّ عليه السلام.
كانَ الإمامُ عليه السلام يَرى في خُروجِ أتباعِـهِ عَلَيهِ فِتنَةً كُبرى، ولَم يَكُن أمامَهُ كي يَحقِنَ الدِّماءَ سِوى أن يوقِفَ القِتالَ، فَأمَرَ بِذلكَ فوراً.
أمّا الخَوارِجُ فَقَد أصَرّوا على التَّحكيمِ، فانطَلَقَ النّاسُ إليهِ لِتَكتَمِلَ فُصولُ الخِدعةِ!
لم يَكُن هذا ما يتمنّاهُ مالِكٌ، ولكنَّهُ لا يَملِكُ أمامَ أمْرِ إمامِهِ سوى السَّمعِ والطّاعَةِ.
فتوجَّهَ إلى النّاسِ و هُوَ يُوقِّعُ على صَحيفَةِ الاتِّفاقِ، وَقـالَ: " . . . رَضيتُ بِما صَنَعَ عليٌّ أميرُ المُؤمنينَ، وَدَخَلْتُ فيما دَخَلَ فيهِ، وَخَرَجْتُ ممّا خَرَجَ منهُ فَإنَّـهُ لا يَدخُـلُ إلاّ في هُدىً وصواب.".
إنتَهَتْ مَعرَكَتُهُ صِفّينَ، بامتِحانٍ عظيمٍ لأصحـابِ عليٍّ عليه السلام، فَسَقَطَ فيهِ الكثيرونَ، ونَجَحَ فيهِ الكثيرونَ، ولَيسَ هذا الأمرُ بِبَعيدٍ عن أيّامِ النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم، فلَقَـدِ انقَلَبَ الكثيرونَ عليهِ في يَومِ اُحُدٍ، وهذِهِ هي نَفسُ البَشَرِ الأمّارَةُ بالسّوءِ، ولا يَنجو مِنَ الضّلالِ إلاّ عِبادُ اللّهِ المُخلِصينَ



كانَ من أوّلِ النّاجحينَ في تِلكَ المَعرَكَةِ مالكٌ الأشتَرُ، الّذي خَرَجَ منها بِعِبرَةٍ كُبرى، مكَّنَتْهُ حينَ عادَ إلى الجـزيرَةِ حيثُ ولّاهُ الإمامُ عليٌّ عليه السلام من خَوضِ الحُروبِ الشَّرِسَةِ ضِدَّ أعداءِ الدّينِ، فلا يَخرُجُ من مَوقِعَةٍ إلاّ ظافِراً، وعَلَمُ الإسلامِ يخفِقُ في العلاءِ.

وسَرعانَ ما احتاجَهُ الإمامُ عليٌّ عليه السلام ليكونَ والِيـاً على مصرَ، بَعدَ أن تَمرَّدَ أهلُها على واليهِم مُحمَّدِ بنِ أبي بَكرٍ،وقد كَتَبَ الإمامُ عليه السلام إلى أهلِ مِصرَ يُخبِرُهُم عن واليهِم الجَديدِ وَيَصِفُهُ لَهُم: " بَعَثتُ إليكُم عَبداً من عِبادِ اللّهِ، لايَنامُ أيّامَ الخَوفِ، ولا يَنكَلُ عنِ الأعداءِ ساعاتِ الرَّوعِ. . . وقَد آثَرتُكُم بِهِ على نَفسي لِنَصيحَتِهِ لَكُم، وَشِدَّةِ شَكيمَتِهِ على عَدُوِّكُم." .

لَيسَ هذا فَحَسبُ، بَلْ إنَّ الإمامَ عليّاً عليه السلام زوَّدَ مالِكاً بِدُستورٍ إسلاميٍّ رَفيعٍ في كَيفِيَّةِ إدارَةِ شُؤونِ البِلادِ، وتسييرِ أعمـالِ الحُكمِ بالعَدْلِ والقِسطاسِ.

وما إنْ عَلِمَ مُعاوِيَةُ بأنَّ مالِكاً باتَ والِياً على مِصرَ حتّى جُنَّ جُنونُهُ، لأنَّهُ يَعلَمُ أنَّ خُطَطَهُ في نَشرِ الفَسادِ بَينَ أهـلِ مِصـرَ ستؤولُ إلى الفَشَلِ، فَهوَ يَعرِفُ تمامَ المَعرِفَةِ مَن يكونُ مالكٌ، وما وَضَعَهُ الإمامُ عليه السلام بَينَ يَدَيهِ من خِطَطٍ وبَرامِجَ للقِيامِ بِعَمَلِهِ على أحسَنِ وَجهٍ.



طَبعاً كانَ مُعاوِيَةُ مَشهوراً بِدَهائِهِ وَمَكْرِهِ، إضافةً إلى استِهتارِهِ بِتَعاليمِ الدّينِ وأخلاقِ الإسلامِ، فَلَم يَكُن صَعباً عَلَيهِ أن يُرسِلَ بأعوانِهِ لِيَدُسّوا السُّمَّ في العَسَلِ، ويَقَدِّموهُ إلى مالِكٍ، ليُكرِمَهُ اللّهُ سُبحانَهُ بالشَّهادَةِ، ويَفوزَ بِالفِردَوسِ الأعلى.

وحينَ عَلِمَ الإمامُ عليه السلام باستِشهادِ مالكٍ، حَزِنَ عَلَيهِ حُزناً شَديداً، وكانَ لَهُ فيهِ كَلِماتٌ خالِداتٌ: "ألا إنَّ مالِكاً بنَ الحارثِ قَد قضى نَحبَهُ، وأوفى بِعَهدِهِ، ولَقِيَ رَبَّهُ، فَرَحِمَ اللّهُ مالِكاً! لَو كانَ جَبَلاً لكانَ فِنداً (ما يبرُزُ منهُ) وَلَو كانَ حَجَراً لَكانَ صَلداً.

للّهِ مالكٌ، وما مالكٌ؟ وَهَلْ قامَتِ النِّساءُ عن مِثلِ مالِكٍ؟ وهَلْ مَوجودٌ كَمالكٍ؟".

لا شكَّ في أنَّها أعظَمُ شَهادَةٍ بِمالِكٍ، وقد خَرَجَت على لِسانِ أعظَمِ البَشَرِ بَعدَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم خاتَمِ الأنبياءِ والمُرسَلينَ.

وهكَذا انتهَتْ حياةُ واحِدٍ من أعظَمِ أنصارِ النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم وآلِ بيتِهِ، وركنٍ أساسيٍّ من أركانِ دولَةِ الإسلامِ العظيمَةِ.

رَضيَ اللّهُ عن مالكٍ الأشْتَرِ.

